الحملات الصليبية على فلسطين خلال القرنين (5-6هـ/11-12م) وموقف الفاطميين منها عسكريا

Fatimides' Military Reactions against the Christian Crusades on Palestine during the 11th& 12th Centuries

Les croisades contre la Palestine au cours des deux siècles (5-6 AH/11-12 AD) et la position militaire des Fatimides

ط.د. بغداد سحيري
جامعة الدكتور يحي فارس بالمدية

تاريخ الإرسال: 2019-12-26- **تاريخ القبول:** 2020-01-03 - **تاريخ النشر:** 2021-12-31

ملخص
تعرضت بلاد الشام نهاية القرن 5هـ/11م لعدوان عسكري شنته مجموعات عسكرية قدمت من دول أوربية، وقد عرف ذلك عند المؤرخين بالحروب الصليبية، وانتهى هذا العدوان بسقوط أغلب المدن الشامية الساحلية، وتأسيس إمارات صليبية هناك، غير أن الفاطميين كانوا طرفا في هذا العدوان منذ بدايته، فقد ساعدوا الصليبيين في السيطرة على بلاد الشام نكاية في السلاجقة، وكان في اعتقادهم أن الصليبيين جاؤوا للسيطرة على شمال الشام فقط، لكنهم صدموا بزحف الصليبيين إلى الجنوب باتجاه بيت المقدس التابعة لهم، فتغيرت نظرتهم وردة فعلهم ووجدوا أنفسهم في مواجهة عسكرية محتومة معهم، فاندلعت الحرب بينهما، وكانت في بداية الأمر جدية، حيث وجه الفاطميون عدة حملات عسكرية باتجاه بلاد الشام لكنها منيت بالفشل، وتواصلت على ذلك مدة من الزمن، ثم توقفت وارتأى عندها القيمون على شؤون الدولة الفاطمية أن يلجئوا إلى الخطة الثانية وهي تدعيم الحاميات الإسلامية اقتصاديا حتى تتمكن من الصمود أمام الضربات الصليبية، فوجهوا مساعدات للعديد من المدن الإسلامية كمدينة صور وعسقلان مثلا، ولكنها هي الأخرى فشلت، وتمكن الصليبيون من السيطرة بلاد الشام وفلسطين، وهددت مصر عدة مرات نتيجة خطأ ارتكبه الفاطميون، وهو الانتقام من السلاجقة من خلال التحالف مع الأعداء (الصليبيين).

الكلمات الدالة: الحملات الصليبية؛ فلسطين؛ موقف؛ الفاطميين.

Abstract
The their mined and perspective changed on the crusaders, and they found their selv in front of massive military attack. It was very serious issue for famitides and they decided to face this danger witch they were not

waiting for it. Unfortunately, all their attempts with facing crusaders failed. Time was running out very quickly for fat imides and people who were ruling the Fatimid states had to try different strategy for fight. They decided to support and defend the cities instead for front clash with the Crusaders, but their attempts to stop crusaders failed. Crusaders could take Syria, Jordan, Lebanon, and Palestine to their control and threatened Egypt for several times. All these happened due to the mistake witch is committed by Fatimid's when they decided to alley crusaders against the sunni Turkish Islamic States Saljukian.

Keywords: the crusader; Palestine; position; Fatimid's.

Résumé

La Syrie était exposée à une attaque militaire vers la fin du 5ème siècle de l'hégire/ 11ème siècle après J-C par des groupes militaires venant de différents pays européens, ce que les historiens désignent par «les croisades». Cette oppression a fini par la chute de la plupart des villes côtières des «Saladjika» sunniques et la fondation des émirats croisés. «Les Fatimides» ont participé à cette oppression dés son début: ils ont aidé les croisés pour occuper la Syrie juste pour défaire leurs ennemis «les Saladjika» croyant que l'invasion des croisés s'arrêtera au nord de la Syrie. Mais ils furent surpris et désemparés lorsque ils constaté que les croisés avaient poursuivi leur invasion vers le sud vers Jérusalem qui leur appartenait. Leur confrontation militaire avec les croisés n'a pas empêché ces derniers d'occuper la Syrie et la Palestine et de menacer l'Egypte. C'est ainsi que leur esprit de vengeance de leurs ennemis «des Saladjika» a facilité l'occupation des croisés de ces deux.

Mots clés: les croisades; Palestine; Position; Fatimides.

مقدمة

تعرضت بلاد الشام نهاية القرن الخامس الهجري الموافق للحادي عشر ميلادي (5هـ/11م)، لاحتلال عسكري من طرفجيوش أوربية، بغية احتلال المنطقة واستغلال خيراتها لتحسين أوضاعها العامة، إذ تذكر المصادر أن أغلب أوربا آنذاك كانت تعيش حالة من الفوضى الناتجة عن الفقر والحرمان، الذي تعاني منه غالبية الساكنة، ولذلك توجب البحث عن حلول لهذه الوضعية خارج أراضيهم، فكانت بلاد الشام هي هدفهم، كونها الأقرب إليهم من ناحية الشرق فهي في الحدود مع الإمبراطورية البيزنطية، كما أنها تحتوي على بيت المقدس الذي يعد محجة للنصارى سنويا، يضاف إلى ذلك أن ما تحتويه هذه البلاد من خيرات جعلها محل أطماعهم، وساعدهم في هذا

الاختيار كبار الأمراء ورجال الدين فها هو البابا أوربان الثاني الذي يعد أكبر داعي لهذه الحروب في خطابه الشهير بمجمع كليرمونت جنوب فرنسا شهر نوفمبر (1095م/488هـ): "وليست هذه الحرب لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فاتخذوا محجة القبر المقدس وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين وأنتم أملكوها لذواتكم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا". (مجهول، 1958، ص17-18)، (Porges, 1942, pp. 4-5)

خرجت هذه الجيوش من أوربا مع نهاية (488هـ/1095م)، باتجاه هدفها، فاحتلت في طريقها أجزاء من الأناضول وآسيا الصغرى، وكان وصولهم إلى أنطاكية التي هي أولى مدن الشام سنة (490هـ/1097م)، فاستعصت عليهم مدة، ثم احتلوها، وأسسوا بها إمارة، وبسقوطها توالت المدن الشامية الأخرى في السقوط.

غير أن الصليبيين لم يهتموا في هذا الوقت إلا بالبيت المقدس التي هي في أرض فلسطين، وكانت تحت سلطان الفاطميين في هذا الوقت، فزحفوا إليها عبر الساحل الشامي ووصلوها سنة (491هـ/1099م)، فاحتلوها ثم احتلوا جل المناطق المجاورة لها كإقليم الجليل، وبعض المدن الساحلية كيافا وقيسارية وأرسوف...، ورغم أن الفاطميين كانوا قد وقعوا على اتفاقية سلام وتعاون مع الصليبيين عند دخولهم الأول إلى شمال الشام، وفي مضمون هذا الاتفاق أن لا يتعدى الصليبيون حدود الفاطميين في الجنوب، إلا أن الصليبيين لم يحترموا هذا الاتفاق، وأصروا على احتلال كل الأراضي التي يستطيعون الوصول إليها وخاصة بيت المقدس، ولأجل هذا تغير موقف الفاطميين من المهادنة والموادعة إلى المواجهة العسكرية المحتومة.

وفي هذا السياق جاء موضوع مقالنا المعنون بـ: "الحملات الصليبية على فلسطين خلال القرنين (5-6هـ/11-12م) وموقف الفاطميين منها عسكريا"، لنجيب من خلاله عن الإشكالية التالية:

- ما هي خلفيات الاحتلال الصليبي لفلسطين، وما موقف الفاطميين من هذا الاحتلال.

وتفرع من هذه الإشكالية مجموعة التساؤلات الفرعية نرتبها على النحو التالي:

- كيف استطاعت الجيوش الصليبية أن تحتل فلسطين وما تبقى من بلاد الشام في وقت وجيز، في وقت كانت القوى الإسلامية الكبرى لازالت تتمتع بنوع من القوة؟

- ما هي أبرز النتائج المترتبة عن هذا الاحتلال، (على العالم الإسلامي عموما والفاطميين خصوصا)؟
- كيف تجسدت ردة فعل الفاطميين من الاحتلال الصليبي لما عرفوا حقيقة نواياه؟

وللإجابة على هذه الإشكاليات قمنا بتقسيم مقالنا هذا إلى ثلاث أقسام، جعلنا القسم الأول بعنوان احتلال بيت المقدس، وتحدثنا فيه عن العمليات العسكرية التي سبقت احتلاله، وإلى غاية سقوطه في يد الصليبيين، ثم جعلنا القسم الثاني بعنوان احتلال إقليم الجليل ومدن الساحل الفلسطيني، وجعلنا القسم الثالث لموقف الفاطميين من العدوان الصليبي، والذي تجسد في المواجهة العسكرية المباشرة، وتقديم المساعدات الاقتصادية أحيانا للحاميات الفاطمية، وختمنا بخاتمة جمعنا فيها ما استنتجناه في هذا البحث.

1. احتلال بيت المقدس

1.1 الطريق إلى بيت المقدس

بعد احتلال الصليبيين لأنطاكية، قرر قادتهم مواصلة السير باتجاه بيت المقدس فزحفوا بجيوشهم إلى معرة النعمان[1] بقيادة ريموند الصنجيلي، وقاومتهم المدينة قرابة أسبوعين قبل أن تسقط، وتعرض سكانها لأبشع المذابح (الجندي، 1994)، ثم زحف ريموند بعد ذلك إلى كفرطاب[2]، ودخلها، ووافاه فيها روبرت النورماندي وتانكرد، وبوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة، بدأت الاتصالات بينهم وبين بعض الأسر العربية في كل من حمص[3] وطرابلس، وشيزر التي قررت الانفصال عن الدولة السلجوقية بعد أن ضعفت قوتها، ويبدو أنهم تخلوا عن فكرة المقاومة لإدراكهم بخطورة الموقف، خصوصا وأنه لا توجد قوة إسلامية كبيرة تحميهم من هذا الخطر ونزلوا عند فكرة مهادنة الصليبيين والاتفاق معهم، وقبول عروضهم التي تقدموا بها (ابن الأثير، 1987).

وفي شيزر قرر الصليبيون النزول عند رأي تانكرد، الذي يقضي باتخاذ الطريق الداخلي لبيت المقدس، بدلا من الطريق الساحلي، الذي أصر عليه ريموند، فقد كان يرى بأنه

1 وهي مدينة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماه. الحموي-1977، ج01، ص 156.

2 بلدة بين المعرة ومدينة حلب... ياقوت الحموي- معجم البلدان، ج04، ص 470.

3 بلد مشهور قديم كبير مسور، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق، المصدر السابق، ج02، ص 302.

يبقيهم على اتصال مع أنطاكية، والحصول على الإمدادات عن طريق البحر، وهكذا مرت الحملة بقلعة مصياف[4]، فخرج إليهم أميرها، وعقد معهم اتفاقية، ثم اتجهوا نحو بارين[5]، ثم رفنية فالبقيعة، واستولوا على حصن الأكراد في شهر (صفر492هـ/ جانفي1099م)،وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص محملين بالهدايا ومعلنين ولاء الأمير العربي، حتى لا يتعرضون لإمارته (الشارتري، 1990).

بعد أن غادر الصليبيون حصن الأكراد اتجهوا نحو عرقة، الواقعة شمال طرابلس، والتابعة لبني عمار، أسرع صاحبها أبو علي فخر الملك بإرسال الرسل إلى ريموند، لعقد اتفاقية معه تعهد فيها الأمير العربي بـ:

- دفع الأموال للصليبيين.
- رفع أعلامهم على سور مدينته وغيرها من الأماكن التابعة له دليلا على ولائه لهم.
- إطلاق سراح ثلاثمائة من أسرى النصارى الذين كانوا في سجون طرابلس دليلا على حسن النية (الصوري،1992).

ثم أرسل ريموند قوة عسكرية صليبية، للسيطرة على أنطرطوس[6]،التابعة لإمارة طرابلس وذلك حتى يسهل عليه الاتصال بالبحر، وتوطيد العلاقات مع اللاذقية، غير أنه لم يتمكن من دخول عرقة، التي صمدت للحصار مدة أربعة أشهر، فتركها الصليبيون في (19جمادى الآخرة 492هـ/13 ماي1099م)، وواصلوا زحفهم على بيت المقدس (مجهول، 1958)، حيث غادروا طرابلس يوم الاثنين (22جمادى الآخرة/16ماي)، فاجتازوا جبيل[7] بأمان ولم يتعرض لهم أحد، ووصلوا في (25جمادى الآخرة/19ماي) إلى الحدود الفاطمية، عند نهر الكلب.

ولما اقتربوا من بيروت، بادر سكانها ببذل الهدايا والعطاءات، كما سمحوا لهم باجتياز بلادهم، شرط ألا يضروا بالأشجار المثمرة والكروم، وكل المحاصيل الزراعية، وقبل

4 حصن مشهور بالساحل الشامي قرب طرابلس. المصدر السابق، ج5، ص 144.

5 مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب. المصدر السابق، ج1، ص 320-321.

6 بلد من سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص. المصدر السابق، ج1، ص 270.

7 بلد في سواحل دمشق، وهو بلد مشهور في شرقي بيروت على ثمانية فراسخ من بيروت. المصدر السابق، ج2، ص 109)،

الأمراء الصليبيون هذه الشروط (توديبو،1999)، ثم اتجهوا إلى صيدا[8]، حيث قاومتهم فنهبوا حدائقها، وتحركوا بعدها إلى صور، ومكثوا فيها يومين بانتظار وصول جماعة من فرسان أنطاكية والرها[9]، ولم يتصد لهم أحد وتحصنت حامية المدينة وراء الأسوار، ثم قصدوا عكا التي وصلوها في أول رجب فصالحهم أميرها، وقدم لهم هو الآخر المؤن والهدايا، كما تعهد لهم بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس (الصوري، 1992).

ثم واصلوا تقدمهم فمروا بقيسارية وأرسوف[10]، ومنها قرروا أن يزحفوا مباشرة باتجاه بيت المقدس، متجنبين مدينة يافا، وذلك اختصارا للطريق والوقت، ومع ذلك فإنهم كانوا حريصين على أن يبقى الطريق بينهم وبين البحر مفتوحا، فاحتلوا الرملة بعد أن أخلاها المسلمون، وتركوا فيها حامية صغيرة (الشارتري، 1990)، ومن أصبح الطريق مفتوحا لبيت المقدس (طقوش،2007).

2.1 سقوط بيت المقدس

وصل الصليبيون إلى بيت المقدس يوم الثلاثاء في (14رجب492هـ/07جوان1099م) وحاصروها في اليوم التالي، وكان قد بلغ عددهم نحو أربعين ألفا، وقد انتشر الصليبيون حول القدس، على امتداد بعض أسوارها، وليس كلها، وذلك بسبب نقص في قواتهم وتمركزوا على الشكل التالي:

- شمالا تجاه باب الساهرة أو باب هيرودوس: قوات روبرت، كونت النورماندي.
- شمالا بغرب، تجاه باب العمود أو باب أسطفان أو باب دمشق: قوات روبرت كونت فلاندر.
- شمالا بغرب عند الزاوية الشمالية الغربية للمدينة: قوات جودفري دي بوايون دوق اللورين.
- غربا، وإلى جانب قوات جودفري: قوات تانكرد بالقرب من البرج الذي سمي فيما بعد باسمه.

8 وهي مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ. المصدر السابق، ج3، ص 437.

9 مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ سميت باسم الذي استحدثها وهو الرهاء بن البلندي بن مالك بن دعر. المصدر السابق، ج3، ص 106.

10 مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا، المصدر السابق، ج1، ص 151.

- جنوبا، على جبل صهيون: ريموند دي صنجيل، كونت تولوز (سويد، 1997).

بقي الجانب الشرقي والجنوبي الشرقي للمدينة بلا حصار، وذلك بسبب استحالة الهجوم من ذلك الجانب لوجوده في مواجهة وادي قدرون وادي ستي مريم، وكانت قوات ريموند دي صنجيل متمركزة، في الأيام الثلاثة الأولى من الحصار بدءا من البرج الذي تمركز عنده تانكرد وسمي فيما بعد باسمه، حتى الباب الغربي للمدينة، إلا أن ريموند اكتشف أن موقعه غير ملائم لمهاجمة المدينة (توديبو، 1999)، وأن البرج يتحكم بمعسكره، كما أن الوادي الذي يقع بين معسكره والمدينة يعيق تحركاته، فقرر أن ينقل قسما من قواته لكي تتمركز على الهضبة المبنية عليها مدينة القدس، بين المدينة وكنيسة صهيون تاركا قسما من قواته في موقعها الأصلي (إبرهارد ماير، (د. ت)).

يبدو أن قيام ريموند بهذه التحركات، بعد أن أدرك أن كونت تولوز يريد أن يحصل رجاله على طريق أسهل إلى المدينة لغرض الهجوم، كما أنه كان يرغب في حماية كنيسة صهيون والحيلولة دون تعرضها للأذى (الصوري، 1992).

والواقع أن هؤلاء المحاصرين واجهتهم في بداية الأمر عدة مشكلات حالت بينهم وبين الاستيلاء على المدينة فورا لعل منها:

- مقاومة الحامية الفاطمية، فقد توفر لافتخار الدولة، المؤن والماء والأسلحة، وهو ما سهل له التفوق مبدئيا على الصليبيين، على أمل أن يصمد أكثر في وجه الحصار إن وصلته النجدة التي طلبها من القاهرة.
- توفر الماء داخل المدينة وانعدامه خارجها، وكان ذلك بفضل التدبير الذكي الذي اتخذه افتخار الدولة، حيث جعل الصليبيين يقطعون مسافة ستة أميال أو أكثر للحصول على الماء، مما يعرضهم لهجمات المسلمين، كما أخذت مؤنهم في النفاذ.
- الحرارة المرتفعة، وقسوتها عليهم.
- تجدد النزاع بينهم حول مصير بيت المقدس، وملكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم.
- انتشرت إشاعة بينهم أن جيشا فاطميا كبيرا قد خرج من القاهرة وهو في طريقه لإنقاذ المدينة (رنسيمان، 1987).

لما تبين لهم أنهم لن يستطيعوا الصمود لحصار طويل، فإنهم قرروا بداية الهجوم على المدينة والاستيلاء عليها، وفعلا شنوا هجوما في(20رجب/12جوان)، على أسوار المدينة، ونجحوا في التغلب على الأسوار الشمالية الخارجية، غير أن انعدام السلالم، حال بينهم وبين تسلق الأسوار(سويد،1997).

بعد أن أدركوا أن محاولتهم ليست مجدية قرروا الانسحاب(مجهول، 1958)، وعدم القيام بهجومآخر ما لم تتوفر لهم المنجنيقات والسلالم، لكنهم افتقروا إلى المواد الأولية التي يصنعون منها الآلات، ثم ما لبثوا أن حصلوا على مساعدة بحرية، إذ في (25رجب/17جوان) رست في مرفأ يافا الفاطمي المهجور سفينتان جنويتان، محملتان بالزاد والعتاد والحبال والمسامير والأخشاب وغيرها، مما يتطلبه العمل لصناعة أدوات الحصار، وكانتا بقيادة أمير البحر الجنوي، ويليام أمبرياكو وشقيقه بريموس (إبرهارد، (د.ت))، فأفرغ الصليبيون حمولتهما إلى البر، وسط مناوشات مع قوة فاطمية قدمت من عسقلان، ونقلوها إلى المعسكر الصليبي عند بيت المقدس، لبناء الأبراج والسلالم اللازمة لتسلق الأسوار، وشرع ريموند الصنجيلي وجود فري في تشييد أبراج من الخشب تسير على عجلات، وبعد الانتهاء من العمل نصبوا الأبراج وأسندوها إلى أسوار المدينة(رنسيمان،1987).

وصلت إلى أسماع الصليبيين وهم يحاصرون بيت المقدس أنباء عن خروج الأفضل من مصر على رأس جيش فاطمي كبير لنجدة المدينة، عندها قرروا الضغط على المدينة لدخولها قبل وصول النجدة الفاطمية، وبعد حصار محكم دام أكثر من أربعين يوما تمكنوا من اقتحامها يوم الجمعة في (23شعبان492هـ /15جويلية 1099م)، "ولبث الإفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس الشريف أسبوعا، قتل في المسجد الأقصى ما يزيد عن السبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وساداتهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور في هذا الموضع الشريف..." (الحنبلي ، 1999، ج1، ص307)، ولم يستثن الصليبيون لا النساء ولا الأطفال، فكانت بحق مذبحة مروعة خاض الصليبيون فيها حتى أكعابهم، في دماء القتلى(الحريري، 1987).

رغم أن المسلمين التجئوا إلى المسجد الأقصى، إلا أن الصليبيين تبعوهم ولم يراعوا حرمته وأجهزوا على كل من احتمى به، حتى فاض المسجد كله بدمائهم (توديبو، 1999)،

وكان المسلمون يذبحون في الشوارع وفي البيوت بوحشية، ولم يجدوا في المدينة مكانا آمنا يعتصمون فيه، فألقى بعضهم بأنفسهم من فوق الأسوار، وازدحم آخرون في القصور والأبراج وفي المساجد، كما وطئ الفرسان أكداس الجثث وهم يطاردون أولئك الذين حاولوا الهرب، وحتى اليهود لاقوا نفس المصير عندما فروا للاحتماء في معبدهم الكبير(معلوف، 1997)، وجمعت جثث القتلى، وطرحت خارج أبواب المدينة، فتعالت أكوامهم "حتى حاذت البيوت ارتفاعا، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة" (مجهول، 1958، ص 118-119).

وفي رواية ذكرها محمود سعيد عمران، "أن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعصي"(عمران، ...19، ص 33)، واحتمى افتخار الدولة مع طائفة من الجند بمحراب داوود، حيث اعتصموا به، وقاتلوا ثلاثة أيام، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد أن بذل لهم الصليبيون الأمان، ثم أطلقوا سراحهم، وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان[11]، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين، ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفوها، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب، حتى أن بعض مؤرخيهم المعاصرين وصف هذه الجريمة بأنها لطخة خزي وعار في تاريخهم، لشناعتها وفظاعتها (ريلي، (د.ت)).

نتيجة لسقوط بيت المقدس، أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان في وقت قريب يعتقد بأن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال بلاد الشام فقط، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة، ولذلك أرسل إليهم ليوبخهم على ما فعلوه (ابن ميسر، (د.ت)).

إن الناظر إلى هول هذه الجريمة في حق البشرية، يقف مصدوما أمام فظاعتها، لأنه لم يسبق للمسلمين أن شهدوا مثلها، وإذا أردنا أن نعدد الأطراف المتسببة فيها فإننا

11وهي مدينة بالشام من أعمل فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام. المصدر السابق، ج4، ص 122.

سنضع الفاطميين والسلاجقة على رأس القائمة، فالفاطميون كانوا السباقين إلى الخيانة ومعاداة السلاجقة والانتقام منهم، واستهانتهم بأعدائهم الحقيقيين (الصليبيين)، فقد عمدوا إلى احتلال بيت المقدس الذي كان بحوزة السلاجقة وذلك بعد انهماك السلاجقة بمواجهة الصليبيين في الشمال، وكان اعتقاد الفاطميين أن هؤلاء الصليبيين لن يتجاوزوا حدود الإمبراطورية البيزنطية أيام صحوتها وهي شمال أنطاكية، وأكثر من ذلك فإنهم عقدوا معاهدة مع الصليبيين لما بدؤوا بزحفهم على شمال بلاد الشام مقتضاها: "أما السلاجقة فإنهم ملومون أيضا وذلك على عدم مساعدة الفاطميين في الدفاع عن بيت المقدس، رغم خلافهم مع الفاطميين، وكان عليهم أن يتناسوا عداءهم لأجل بيت المقدس، لا من أجل المصالح السياسية الضيقة، فقد كان في مقدورهم لو قدموا المساعدة أن يقوا المسلمين شر هذه الجريمة".

لكننا إذا نظرنا بعين الإنصاف والحقيقة فإننا سنقول بأن الأكثر ملامة من هذين الطرفين، هم الفاطميون، لأنهم المتسبب الأول في هذه المجازر، ولو أنهم تصرفوا منذ البداية بحكمة لما حدث ما حدث، وتخلوا عن المصالح الدنيوية الضيقة ووقفوا إلى جانب السلاجقة لاستطاعوا متوحدين رد العدوان الصليبي، لكن شاءت الأقدار أن يكون الخلاف السياسي دائما هو السبب الأول في ضياع الممالك.

3.1 تأسيس مملكة بيت المقدس

بعد أن تمكن الصليبيون من السيطرة على بيت المقدس، بدأوا يفكرون في كيفية تنظيم المدينة وانتخاب حاكم عليها، "وكانت مهمته الأولى تتمثل في تنظيم الدفاع عن المستعمرة الجديدة ضد الهجوم المصري المضاد..." (ريلي، (د.ت)، ص113)، ولذلك قرروا الاجتماع(25شعبان/17جويلية) من أجل هذه القضية لتدارس كيفية التنظيم، غير أن هؤلاء المجتمعين اختلفوا فيمن يحكم المدينة فظهر تياران، أحدهم كنسي ديني والآخر علماني، وكان لابد من حسم الأمور بسرعة فيمن يتولى حكم المدينة. كانت النية متجهة نحو تنصيب بطريرك[12]، لاتيني رئيسا لها وأن يعهد إليه بولايتها، غير أن الأمور لم تسر كذلك، وتغلب الفرع العلماني على الفرع الكنسي، وذلك لطبيعة الظروف التي

12 هو رئيس الملة عند النصارى وخليفة المسيح فهم، يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية، ويسمونه الأسقف أي نائب البطريك...، ابن خلدون- العبر، ج1، ص266.

أحاطت بهم، فقيام حكومة لاتينية، أمر يحتاج إلى قيادة عسكرية علمانية للدفاع عن هذه الدولة ضد المسلمين المحيطين بها، ورأى مجلس الأمراء الذي كان يدير الحملة الصليبية، أن اختيار زعيم عسكري أمر لابد منه (ربلي، (د.ت).

انحصر التنافس أخيرا بين ريموند الصنجيلي وجودفري دي بوايون، وكان الأول هو الأقرب للحصول على إمارة المدينة، بالنظر إلى قوة شخصيته وحنكته السياسية وبعد نظره، لكن الأمراء لم يميلوا إليه لتخوفهم منه، ثم إن ريموند كان مفرطا في التودد إلى الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين وكان يؤيد فكرة التحالف مع الدولة البيزنطية، وهو ما أثار استياء كثير من الصليبيين، ومع ذلك، فإنه لما عرض عليه التاج رفضه، فقد أدرك أن العرض ما لم يحظ بتأييد الأغلبية فإن حكمه لن يكون مستقرا، يضاف إلى ذلك أن عساكره كانوا قد أعلنوا معارضتهم لقبوله العرش، فأعلن عندئذ أنه لا يجب أن يكون ملكا (الصوري، 1992).

يبدو أن الناخبين ارتاحوا لهذا الرفض، فعرضوا التاج على جودفري، فقبله بعد تردد، غير أنه طلب إعفاءه من أن يتخذ لقب ملك، وأراد أن يعرف باسم حامي القبر المقدس (الشارتري، 1990).

توفي جودفري دي بوايون حاكم بيت المقدس، يوم الأربعاء (9رمضان493هـ/ 18جويلية1100م) بعد مرض أصابه (إبرهارد، (د.ت))، وبقيت إمارة بيت المقدس بلا أمير يحكمها، وهو ما جعل الخلاف يظهر مرة أخرى بين القادة الصليبيين، حيث تنافسوا على حكم بيت المقدس، وعزم بلدوين حاكم الرها، وأخو جودفري دي بوايون، على الاستئثار بحكمها بوصفه الوريث الشرعي لأخيه فسار إلى أنطاكية ومنها اللاذقية، ووصل إلى طرابلس على رأس قوة عسكرية مؤلفة من مائة وستين فارسا وخمسمائة من الرجالة، ورحب به فخر الملك بن عمار، وقدم إليه المؤن، ثم تابع سيره بطريق الساحل حتى وصل إلى نهر الكلب، وهناك اصطدم بقوات سلجوقية مشتركة بقيادة دقاق صاحب دمشق وجناح الدولة صاحب حمص(الذهبي، 1985)، وانتصر عليهم، ثم تابع طريقه إلى بيت المقدس ودخلها في (05محرم494هـ/10نوفمبر1100م)، وتوج ملكا على المدينة في اليوم التالي وأعلن القادة الصليبيون ولاءهم له، وبذلك تحولت إمارة بيت المقدس إلى مملكة صليبية لاتينية (الشارتري، 1990).

2. احتلال إقليم الجليل ومدن الساحل الفلسطيني

1.2احتلال إقليم الجليل

إقليم الجليل هو من الأقاليم الواسعة في فلسطين، يقع إلى الشمال من بيت المقدس، ويمتد إلى قرب حمص (الحموي،1977)، تحده من الغرب المدن الساحلية عكا وحيفا وقيسارية، بينما تحده من الشرق بحيرة طبرية ونهر الأردن، وتقع بمحاذاته مدن الناصرة وكوكبة والجليل، وكان من أوائل المدن الفلسطينية التي تعرضت للعدوان الصليبي، بعد بيت المقدس، وقبله كانت مدينة نابلس قد دخلت في فلك الصليبيين، وإن كان سقوطها متوقعا إلا أنه جاء بطريقة غريبة، فلم يكن بقوة عسكر الصليبيين، وإنما جاء أهلها بأنفسهم لتسليم المدينة للصليبيين، فتسلمها تانكرد في (492هـ/1099م) (السرجاني، (د.ت)).

ثم إن جودفري عهد إلى تانكرد باحتلال إقليم الجليل، فإن وفق في ذلك كان واليا عليه فتحمس تانكرد للمهمة كثيرا ولم تكن صعبة عليه، ورغم قلة رجاله وضعف إمكانياته بعد رحيل العديد من الأمراء والجنود، إلا أن أهل الإقليم كانوا أضعف فاحتله في فترة وجيزة(رنسيمان، 1968)، كما احتل مدينة طبرية بسهولة بعد أن هرب منها أهلها، وفعل الشيء نفسه مع مدينة بيسان في الجنوب الشرقي لإقليم الجليل، وهكذا مع نهاية سنة (492هـ/1100م)، وبداية سنة (493هـ/1101م) أصبح إقليم الجليل تابعا للصليبيين وتحت إمارة تانكرد، على أن هذا الإقليم صار تابعا لبيت المقدس وليس مستقلا بذاته (السرجاني، (د.ت))، وبهذه الطريقة أصبحت كل من بيت المقدس ويافا واللد والرملة ونابلس وبيسان وطبرية بيد الصليبيين(عبده، 1978).

جدير بالذكر أن القوة الصليبية في كل هذه المدن الفلسطينية المحتلة، بما فيها بيت المقدس كانت ضعيفة جدا، لتفرق الحاميات الصليبية بين هذه المدن الكثيرة، ولانسحاب ريموند بجيشه إلى الشمال بعيدا عن فلسطين، إلا أن المقاومة الإسلامية آنذاك كانت أضعف بكثير، وربما شعر المسلمون أن قتال الصليبيين أمر صعب، وهو ما أدى إلى استقرار الصليبيين رغم قلتهم (السرجاني، (د.ت))، ثم إن السياسة الحكيمة التي اتبعها جودفري، كانت وراء بقائهم بفلسطين أكثر، وهذه السياسة هي:

- عمل جودفري على تقوية وتحصين ميناء يافا (ابن الأثير، 1987)، لأنه المنفذ البحري الوحيد في هذه الفترة بيت المقدس، مما ساعد على ازدهار المدينة تجاريا وعسكريا.
- الاتفاق مع الجمهوريات الإيطالية على إمداد بيت المقدس بالأساطيل التجارية والعسكرية، وذلك لحماية الشواطئ الفلسطينية، مما سهل للإيطاليين السيطرة على مجريات الأمور، وفي مقابل ذلك ضعفت موانئ كل من عكا وأرسوف وغيرهما، مما سيسهل بعد ذلك احتلالهم.
- اعتماد سياسة الترهيب والبطش مع السكان، ومن ذلك ما فعلوه مع بعض المزارعين من أرسوف الذين أمسك بهم الصليبيون، فنكلوا بهم بعد قتلهم، حيث قطعوا أنوفهم وأيديهم وأرجلهم، وكل ذلك لبث الرعب في قلوب المسلمين (طقوش، 2007)، حتى لا يفكروا في جهاد الصليبيين.

الدخول في مباحثات سلام مع المدن الشامية التي لا تزال لم تسقط بأيدي الصليبيين وذلك لتجنب الاحتكاك العسكري، في وقت هو في أشد الحاجة إليه، وبالتالي فهذه الاتفاقيات تسمح له باستجماع قواه، إلى حين يصبح بإمكانه السيطرة عليها (السرجاني، (د.ت)).

2.2 إحتلال مدن الساحل الفلسطيني

إذا كانت مدن فلسطين الداخلية، قد سقطت بتلك السهولة، فإن مدن الساحل شهدت وضعا مغايرا تماما، فقد حصلت اشتباكات عنيفة بين الصليبيين والمسلمين انتهت باستيلاء الصليبيين على الساحل الفلسطيني، فبفضل ما انضم إلى قوة جودفري دي بوايون العسكرية من إمدادات، استطاع أن يبسط سلطانه على سهول فلسطين الساحلية، وكانت أولى هذه المدن هي حيفا (الشارتري، 1990).

1.2.2 احتلال مدينة حيفا

لما شعر جودفري بأنه ليس بمقدوره مجابهة مسلمي أرسوف وعسقلان، بعد صمودهم أمام ضرباته المتكررة، طلب مساعدة البيازية في دفع الخطر، وبدأ بتحصين مدينة يافا، كما استعان ببعض قوات أنطاكية لمساعدته في حصار عكا، لكن لم تلبث الأخبار أن حملت نبأ وفاة جودفري دي بوايون يوم الأربعاء تاسع رمضان، فاقترح دايمبرث وتانكرد على البنادقة رفع الحصار عن عكا، وتوجيه الجهود للاستيلاء على حيفا (ابن

القلانسي، 1983)، والواقع أن الصليبيين قد وقع اختيارهم على هذه المدينة، لقربها من بيت المقدس، فهي أكثر نفعا للقضية الصليبية في ذلك الوقت، وكانت حيفا تابعة للدولة الفاطمية، وبها حامية قليلة العدد تابعة للفاطميين.

وصل إلى يافا في (494هـ/1100م) أسطول من البنادقة يتكون من حوالي مائتي سفينة وقد عرض قادة هذا الأسطول خدماتهم على الصليبيين (المقريزي، 1996)، وبدأوا في حصار مدينة عكا من ناحية البحر بينما تولى جودفري حصار المدينة من ناحية البر، ولكن موت جودفري حول الحملة إلى حيفا التي سقطت في أيدي الصليبيين في (494هـ/1100م) (رنسيمان، 1968).

2.2.2 احتلال مدينة أرسوف

أما فيما يخص مدينة أرسوف، فقد كان جودفري يأمل في فتح ممرات إضافية لبيت المقدس تؤدي إلى البحر، إذ لم يكن سوى ممر يؤدي إلى يافا، فحاول أن يوسعه بأن يستولي على ميناء أرسوف الصغير الواقع إلى الشمال منها، فكيف حدث ذلك ؟

لما قرر جودفري أن يسيطر على الميناء قام بمحاصرته، إلا أن الحامية أجبرته على رفع الحصار فأمر على إثر ذلك بعض أفراد جيشه بأن يغيروا على الأراضي المجاورة لأرسوف لإجبار حاميتها على الاستسلام، في حين أغار هو على المدن الفاطمية الساحلية كعسقلان وقيسارية وعكا، ومنع وصول المؤن إليها من الريف، وحصن يافا بمساعدة البيازية، وأصلح ميناءها، فازدادت المشقة أمام السفن الفاطمية لجلب المؤن بحرا إلى الموانئ الإسلامية، واشتدت معاناة سكانها (طقوش، 2007).

وفي شهر (ربيع الآخر493هـ/فيفري1100م) ظفر الصليبيون ببعض سكان أرسوف الذين خرجوا لمزاولة نشاطهم في مزارعهم القريبة، فانتقموا منهم انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم (الصوري، 1992)، ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية، فقد أرسل سكانها سفارة عاجلة إلى القاهرة لطلب المساعدة، لكن الأفضل اكتفى بأن يرسل إليهم قوة عسكرية صغيرة مؤلفة من ثلاثمائة جندي، تصدى لها الصليبيون، وقتلوا منها عددا كبيرا.

غير أن سكان أرسوف استبد بهم اليأس عندما رأوا الإمدادات تصل إلى الصليبيين، وأدركوا عدم جدوى المقاومة، واضطروا إلى الدخول في تبعية الصليبيين، فأرسلوا

سفارة وصلت بيت المقدس في جمادى الأولى، حملت معها هدية رمزية، عبارة عن مفاتيح أبراج المدينة، وعرضت أن تدفع جزية سنوية، فقبل جودفري دي بوايون منهم ذلك، ولم يلبث أن اقتدى بهم سكان عسقلان وقيسارية وعكا، في الشهر التالي ودخلوا في تبعية الصليبيين وتعهدوا بدفع جزية سنوية رمزا لهذه التبعية(الشارتري، 1990).

لكن هذه الأوضاع لم تدم طويلا، فقد وصل في عام(494هـ/1100م)، إلى حيفا أسطول جنوي (عمران، 1995)، أسرع إليه الملك بلدوين لاستقباله، وفي نيته عقد تحالف معه، وهو ما حدث بالفعل حيث تم الاتفاق بين قادة الأسطول الجنوي والملك بلدوين، على عمل الأسطول تحت إمرة الملك بلدوين حوالي ثلاثة أشهر ويكون نصيبهم ثلث الغنائم، وأن يكون لهم شارع في سوق كل مدينة يتم فتحها (الصوري، 1992). كانت مدينة أرسوف الهدف الأول لهذا الاتفاق، وتولى الأسطول مهاجمة المدينة من ناحية البحر وبلدوين وجيشه من ناحية البر، ولم تستطع المدينة الصمود طويلا فعرضت التسليم مقابل الأمان وخروج الأهالي بأنفسهم فقط، ووافق الملك بلدوين وتسلمها ثم خصص لها حامية للدفاع عنها وأعطى الجنوية ما وعدهم به، ورحل أهل المدينة في حراسة قوات بلدوين إلى مدينة عسقلان في (495هـ/1101م) (الشارتري، 1990).

3.2.2 احتلال مدينة قيسارية

بعد أرسوف اتجهت أنظار المتحالفين نحو مدينة قيسارية، حيث بدأ الحصار في شهر رجب ورفضت حاميتها التسليم وظلت تقاوم خمسة عشر يوما حتى سقطت (عمران، 1995)، واستباح الصليبيون المدينة ونهبوها فلجأ سكانها إلى المسجد الجامع في المدينة ولكن الصليبيين لاحقوهم، وجرت مذبحة داخل المسجد حتى صار صحن المسجد بحيرة من الدماء، ولعل ذلك مرجعه إلى أن الملك بلدوين أراد أن يظهر للمسلمين أنه يحفظ عهد من يسالمه ولا يرحم من يحاربه، وأقام بلدوين حامية صليبية بالمدينة للدفاع عنها ونفذ اتفاقية مع الجنوية (الحريري، 1981).

لكن فظاعة الجريمة لا يمكننا أن نبررها أبدا، لأن الصليبيين تلك هي أخلاقهم وتلك هي أفعالهم، فالوحشية من طباعهم، فقد فعلوها قبل ذلك في بيت المقدس، وقبله في معرة النعمان وأنطاكية، ولو أننا قبلنا مبرر أن سكان المدينة كانوا متسببين في هذه المذبحة، فإننا نقول ما الذي يبرر جرائم الصليبيين في بيت المقدس؟ عندما جاؤوا على

الكبير والصغير والمحارب والمسالم، وفي حقيقة الأمر يمكننا الإجابة على هذا التساؤل ببساطة، وهو حقد الصليبيين الكبير على الإسلام والمسلمين هو الذي دفعهم إلى ارتكاب هذه المجازر الوحشية.

4.2.2 احتلال مدينة عكا

ركن المسلمون في الساحل الشامي إلى السكينة والهدوء، بعد سقوط القدس بيد الصليبيين فاستغل بلدوين هذا الهدوء، ليوطد مركزه على بقية المدن وعلى الرغم من أنه استولى على المدن الواقعة بين يافا وحيفا، ومنها أرسوف وقيسارية(باركر، (د.ت))، فإنه طمع في احتلال بقية الثغور، مثل عسقلان وعكا، التابعتين للفاطميين، وبخاصة أن المسلمين كانوا يغيرون على الطرق التي تربط بينهما، وهددوا المواصلات بين يافا وبيت المقدس فاختار أن يستولي على عكا، فحاصرها في شهر (رجب 496هـ/أفريل1103م) وضيق على أهلها وكادت تسقط في يده لولا أن وصلت إليها النجدات من سائر السواحل من صور وصيدا، واضطر إلى رفع الحصار عنها (ابن الأثير، 1987).

من الواضح أن فشل الملك الصليبي مرده إلى عدم وجود قوة بحرية تسانده لإحكام الحصار على المدينة من البر والبحر، ولذلك فقد استغل الفرصة التي أتيحت له في أوائل (جمادى الآخرة 497هـ/مارس1104م)، عندما وصل إلى اللاذقية أسطول جنوي ضخم، ضم سبعين سفينة مشحونة بالجنود والحجاج والتجار الذين قدموا إلى الشرق (ابن الوردي، 1996)، فاستعان بهم بلدوين، في فرض حصار على المدينة، في شهر شعبان بعد أن وعدهم بثلث الغنيمة وامتيازات تجارية (ابن الأثير، 1987).

تسلم بلدوين المدينة، لكن الجنوية نقضوا عهد دخولهم إليها، بعد أن رأوا ما بها من خيرات فاستباحوها، مما أثار غضب بلدوين ونقمته، ويقول ابن الأثير: "...فلما فرغوا من جبيل ساروا إلى مدينة عكا استنجدهم الملك بغدوين ملك الفرنج صاحب القدس على حصارها فنازلوها، وحصروها في البر والبحر وكان الوالي بها اسمه ينا، ويعرف بزهر الدولة الجيوشي، فقاتلهم أشد قتال فزحفوا إليه غير مرة فعجز عن حفظ البلد فخرج منه، وملك الفرنج البلد بالسيف قهرا وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة..." (أبو الفدا، 1977، ج2، ص35)، وقد عزا أبو الفدا سقوط عكا بيد الصليبيين إلى النزاع الذي كان قائما

بين المسلمين بعامة "...وملوك الإسلام إذاك منشغلونبقتال بعضهم البعض، وقد تفرقت الآراء واختلفت الأهواء، وتمزقت الأموال..." (توديبو، 1999).

يبدو أن سقوط عكا قد أضر بالوجود الفاطمي في منطقة الساحل، وقلص من نفوذهم في بلاد الشام، وحرمهم من أهم قواعدهم البحرية هناك، وكفل لبلدوين ميناء صالحا لرسو السفن في كل الفصول والاتصال بأوربا، كم سمح للسفن الصليبية الاحتماء به لتفادي هجمات الأسطول الفاطمي، وأضحت عكا الميناء الرئيسي لمملكة بيت المقدس.

5.2.2 احتلال مدينة عسقلان

لم يتبق من المدن الفاطمية بفلسطين بعد سقوط عكا بأيدي الصليبيين، سوى مدينة عسقلان، ورغم أنها كانت مسرحا لعدة معارك عسكرية بين الفاطميين والصليبيين، إلا أنها صمدت وقتا طويلا ثم سقطت، وكان ذلك بعدما انغمست الدوائر الفاطمية في سلسلة المؤامرات والاغتيالات منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، وهو ما أتاح لملك بيت المقدس، بلدوين الثالث (538-558هـ/1143-1163م)، الذي خلف الملك فولك، بتوجيه نشاطه العسكري إلى مصر، ولن يحدث ذلك ما لم تتم السيطرة على عسقلان، لأنها الفاصل بين مصر وبيت المقدس، وهي لا تزال تحت سيطرة الفاطميين وبالتالي تأمين أظهرهم أمر محتوم حتى يتمكنوا من السير إلى مصر بأمان.

لكن الاستيلاء على عسقلان، يفرض اتخاذ مجموعة من التدابير السياسية والعسكرية، فمن الناحية السياسية، كان يتوجب على بلدوين أن يحمي ظهره من جانب دمشق، ولذلك حرص على مساندة مجير الدين أبق صاحب دمشق[13] أثناء حصار نور الدين محمود زنكي لهذه المدينة واشترك مع الدماشقة في الحد من نفوذه في إقليم حوران فقويت الصلات بين الجانبين وتمكن من حصر جهوده في غزو عسقلان (إبرهارد، (د. ت)).

13 هو أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابك أبو المظفر سعيد التركي، ولد ببعلبك، وقدم دمشق مع أبيه محمد، فلما مات أبوه ولي إمرة دمشق يوم الجمعة الثامن من شعبان سنة خمس مائة وأربع وثلاثين...، ابن عساكر-1995، ج07، ص 299.

أما من حيث التدابير العسكرية، فقد جدد أسوار غزة، بعد أن هدم القديمة منها وبنى لها سورا جديدا وقلعة حصينة ، وكان الفاطميون قد شعروا بهذه الاستعدادات، التي قام بها بلدوين الثالث مما دفعهم إلى الاستعانة بنور الدين محمود، إلا أنهم لم يتلقوا مساندة مباشرة (الحريري، 1985)، وهكذا تهيأت الظروف لبلدوين الثالث، فزحف إلى عسقلان وحاصرها في شهر (ذي الحجة547هـ /مارس 1153م)، واستمر الحصار بضعة أشهر كانت الحكومة في القاهرة تمد أهل المدينة بالمعونة عن طريق البحر، إلا أن الفاطميين لم يغامروا بمساعدة المدينة من البر، ولطول مدة الحصار، ونتيجة للقذف شبه المتواصل، تداعت الأبراج، فاضطرت الحامية إلى التسليم مقابل الأمان للسكان أثناء خروجهم من المدينة في شهر(جمادى الأولى548هـ/أوت 1153م)، وهو ما وافق عليه بلدوين الثالث، ودخل الصليبيون المدينة في موكب النصر وتسلموا القلعة بكل ما تحويه من المال والسلاح، وتقرر جعل عسقلان إقطاعا لكونت يافا عموري شقيق الملك (رنسيمان، 1968).

أدى استيلاء الصليبيين على عسقلان، إلى نتائج بعيدة الأثر، فبالرغم من أن الصليبيين لم يكونوا متأثرين بالسرايا التي تخرج من المدينة صوبهم، إلا أنهم استحوذوا على إقليم آخر وحصن حصين للفاطميين، كما ضمنوا بواسطته اقترابهم من مصر، مما يسهل لهم الإغارة عليها أو الاستحواذ عليها إن سنحت لهم الفرصة.

لكن الذي لم يخطر على بالهم، هو أنهم صاروا هدف المغامرين من مصر، فقد كان بعض هؤلاء المغامرين ينطلق من مصر باتجاه المدن الخاضعة للصليبيين للإغارة عليهم، وقد تأثرت منهم هذه المدن تأثرا كبيرا، ثم إن بعض الحكام المسلمين ممن لهم النخوة، والغيرة على البلاد الإسلامية، صاروا يغيرون على بعض المدن الصليبية، ومن ذلك ما فعله نور الدين محمود، عندما قام بمهاجمة بانياس بالاشتراك مع مجير الدين أبق صاحب دمشق، لتخفيف الضغط عن عسقلان (ابن الأثير، 1987). أكثر من ذلك هو أن الفرنج بعد استيلائهم على عسقلان صاروا يتمتعون بقوة وهيبة كبيرتين، حيث راحوا يوجهون أنظارهم إلى بعض المدن الإسلامية الكبيرة للاستيلاء عليها، "فقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين أبق، وتابعوا الغارات على أعماله" (ابن الأثير،1987، ج9، ص 392)، وهكذا تراجع مركز دمشق حتى دخلت في حماية

الصليبيين، ودفع أهل دمشق ضريبة سنوية لهم، فكانت رسلهم تدخل المدينة لجباية الأموال المفروضة على أهلها لملك بيت المقدس (رنسيمان، 1968).

3. موقف الفاطميين من العدوان الصليبي

لما أدرك الأفضل بن بدر الجمالي أن الصليبيين خرجوا عن حدود ما كان يتوقعه، أعاد النظر في سياسته وقرر الاتصال بالإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين للاستفسار منه عن نوايا الصليبيين، وهل هم يعملون لحسابه أم لا؟، فأنكر الإمبراطور علاقته بهم (الغامدي، (د.ت)).

غير أن الأفضل تيقن من أنهم يعملون لحسابه ، فقام بإرسال سفارة ثانية إليهم، وهم قرب طرابلس تحمل معها جملة من الهدايا والتحف لكل قادة الحملة وعرض عليهم مشروع تحالف كالسابق، بالإضافة إلى السماح لهم بحرية العبادة في بيت المقدس على ألا يدخلوه بسلاحهم ولكنهم ردوا عليه ردا عنيفا حيث قالوا: بأنهم سيدخلون بيت المقدس بإذن الله دون إذن من خليفة القاهرة (طقوش، 2007)، ولذلك بدأ بتجهيز نفسه استعدادا للدفاع عن أملاكه، بطريقتين، أولاها توجيه الحملات العسكرية المباشرة، وثانيها الاعتماد على الحاميات العسكرية، وكانت أولى معاركه مع الصليبيين، هي معركة عسقلان.

1.3 معركة عسقلان الأولى

تجدر الإشارة إلى أن مدينة عسقلان شهدت عدة معارك بين الفاطميين والصليبيين، لكن أكبرها وأشهرها هي معركة عسقلان الأولى والتي حدثت في أعقاب سقوط بيت المقدس ولذلك اكتفينا بذكرها هي فقط، في حين كنا أشرنا إلى بقية المعارك في سياق حديثنا عن سقوط عسقلان.

عندما وصلت أنباء سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين، إلى خليفة بغداد المستظهر (487-512هـ/1094-1118م)، أرسل إلى السلطان السلجوقي بركياروق يخبره بالأمر، ويدعوه إلى نصرة المسلمين في بلاد الشام، لكن هذا الأخير لم يقم بأي عمل جدي يحقق هذه الرغبة (طقوش، 2007)، لسبب بسيط وهو أن المدينة تابعة للنفوذ الفاطمي، وبالتالي فعلى الفاطميين أن يتحملوا تبعات خيانتهم للسلاجقة، أثناء وقوعهم تحت رحمة الحصار الصليبي في أنطاكية، والمدن التي قبلها.

وإن رمنا الحق فإن ما قام به السلطان السلجوقي، ليس من شيم أهل السنة، وإن كان الطرف الذي طلب مساعدته اسمه الدولة الفاطمية، فكان يجدر به أن يقدم المساعدة لنصرة بيت المقدس، فينال بذلك الثناء الحسن بحرصه على صون البيت المقدس، ويوصل رسالة إلى الأفضل والفاطميين ككل، بأن أهل السنة ليسوا أعداءهم كما يعتقدون، ومن جهة أخرى فإن حاولنا أن نلتمس له العذر في تقاعسه، فكل ما يمكننا أن نتحجج به، هو أن الفاطميين كانوا قد استغلوا نقطة ضعف السلاجقة، وهي انهماكهم بمواجهة الصليبيين، ليقوموا بالانقضاض عليهم من الخلف، وقد يفعل الفاطميون أكثر من ذلك لو أن الصليبيين لم يقصدوا ممتلكاتهم. أسهم الخلاف الذي كان بين بغداد والقاهرة، في خسارة أنطاكية وبيت المقدس، بالإضافة إلى بعض المدن الإسلامية الأخرى، كبيت لحم والد والرملة ويافا (ابن الأثير، 1987).

الواقع أن الأفضل بدأ بتجهيز جيشه للمسير إلى فلسطين، لنصرة بيت المقدس المحاصر من طرف الصليبيين، وخرج به من مصر ليحول دون استيلائهم عليه، ولكنه وصل إلى عسقلان في (14رجب) وكان قد فات الأوان (ابن القلانسي، 1983)، كما أنه أضاع كثيرا من الوقت في عسقلان ينتظر وصول الأسطول الفاطمي عن طريق البحر، إضافة إلى النجدات العربية التي وعد بها (مجهول، 1958) مرتكبا خطأ عسكريا كبيرا، إذ في الوقت الذي كان فيه قابعا في عسقلان، اكتشف الصليبيون أمره، فبادروا بالهجوم على معسكره صبيحة(22رمضان/12أوت)، في سهل المجدل الواقع شمال عسقلان (السرجاني، (د.ت))، وكان كشافته قد وقعوا في الخطأ، عندما أعلموه بأن الطريق خالية، ولم يكونوا على علم بأن الصليبيين قريبين منهم، ولذلك فعندما نشبت المعركة بدا ضعف جيشه جليا، فقد عجز عن مقاومة الصليبيين، والراجح أن عدم استعدادهم للحرب في ذلك الوقت بالضبط، هو سبب هذا الضعف، ولذلك فلم تمض إلا مدة وجيزة حتى حلت بهم الهزيمة، وولوا هاربين إلى ناحية عسقلان، أما الأفضل فقد ركب سفينة أعادته إلى مصر(مجهول، 1958)، "وحكي أن الذين قتلوا من أهل عسقلان من شهودها، وتجارها وأحداثها سوى أجنادها ألفان وسبعمائة نفس..." (ابن القلانسي، 1983، ص 137).

أكدت هذه الهزيمة أنه ليس بمقدور الفاطميين أن يستردوا ما فقدوه من الأراضي، لكن ذلك لا يعني أن باستطاعة الصليبيين الاستيلاء على جميع نواحي فلسطين، لأن

البحرية الفاطمية لا تزال تسيطر على ساحل بلاد الشام، وتبسط حمايتها على الموانئ البحرية، ولكن ما علمه الصليبيون من خلال احتكاكهم بالجنود الفاطميين، هو أن الفاطميين ليسوا بقوة الأتراك، مما أعطاهم الثقة بالنصر(رنسيمان، 1968).

كان جودفري دي بوايون، يأمل بعد هذا الانتصار على الفاطميين في الاستيلاء على عسقلان، لذلك ضرب الحصار عليها، ولما أدركت حاميتها أنه ليس بوسعها أن تصمد أمام القوات الصليبية فضلت الاستسلام، تجنبا لمذبحة جديدة كالتي حدثت قبل قليل في بيت المقدس ولذلك قرر قائدها أن يدخل في مفاوضات مع ريموند الصنجيلي لتسليم المدينة إليه (المقريزي، 1996)، ويكون قائد الحامية، قد استند في تفكيره هذا، إلى ما فعله افتخار الدولة، قائد حامية بيت المقدس عندما طلب الأمان من الصليبيين، فأعطوه الأمان وسمح له ولرجاله بالخروج سالمين من بيت المقدس.

على كل حال، قبل الصليبيون فكرة قائد الحامية، لكنهم لم يسيطروا على المدينة، بعد أن دخلوا في خلافات فيما بينهم، فقد كان ريموند الرابع يبحث عن تأسيس إمارة له، وكان يحلم بمدينة عسقلان لتحقيق رغبته هذه، ليواجه تعنتا من جودفري، الذي كان يريد هو الآخر الاستئثار بها، ونتيجة لهذا الخلاف انسحب ريموند الرابع من الحصار، ليترك جودفري لوحده فرأى هذا الأخير أنه لن يستطيع مواصلة الحصار لوحده، فانسحب هو الآخر، بعد أن فرض على أهلها عشرين ألف دينار، فلم يدفعوا منها شيئا (ابن القلانسي، 1983).

هكذا أدى النزاع الداخلي بين ريموند وجودفري إلى ضياع عسقلان من أيدي الصليبيين لمدة تزيد على نصف قرن، تلى ذلك أن عرضت مدينة أرسوف الصغيرة أن تستسلم لريموند وكان قد هاجمها بعد انصرافه من أمام عسقلان، فتصدى له جودفري من جديد، بوصفها تتبع بيت المقدس(ابن القلانسي، 1983).

2.3 معركة الرملة الأولى

ما إن تمكن بلدوين من السيطرة على قيسارية، حتى وصلت إليه شائعة لم تكن بعيدة عن الواقع، تلك هي أن خليفة مصر، كان قد أرسل واحدا من كبار قواد جيشه وهو المملوك سعد الدولة القوامسي، في أواخر (رمضان494هـ/جوان1101م) على رأس مجموعة من العسكر إلى ناحية عسقلان، وقد أمره أن يتقدم بسرعة لقتال

الصليبيين، حتى يباغتهم ويتيسر له القضاء عليهم بسهولة تامة، ويقال أنه كان في جيشه أحد عشر ألفا من الفرسان، وعشرون ألفا من العسكر المشاة(الصوري، 1992).

لذلك قام الملك بلدوين بمغادرة قيسارية على جناح السرعة، فقد كان يتخوف من استيلاء هذا الجيش على بيت المقدس، بالنظر إلى كثرته، ولما وصل إلى الرملة أقام بها ما يقرب الشهر ثم عاد أدراجه إلى يافا، إذ لم يبد أثر للجيش الفاطمي (طقوش، 2007)، والراجح أن القائد الفاطمي كان متوقفا ينتظر المدد، من المناطق والمدن المجاورة، وفي ثامن ذي القعدة خرج سعد الدولة باتجاه الرملة حيث لم يستطع التراخي أكثر، وربما يكون قد تخوف من غضب الأفضل، فقرر الدخول في المعركة لوحده وعبأ صفوف جيشه للقتال، ثم أغار غارة خاطفة على بعض المدن الصليبية (الشارتري،1990). ولما علم الملك بلدوين بما حدث أمر باستدعاء قواته، وكانت قليلة بالمقارنة مع ما جاء به الفاطميون، والراجح أن صغر المساحة التي تحت يده.

كان السبب في قلة جيشه، غير أنه غامر بنفسه وخرج بهذه القلة، لمواجهة القوامسي، وكان مجموع ما معه من الجيش، ألف فارس وعشرة آلاف راجل (ابن القلانسي، 1983)، ولما اتضح أن الجيش الفاطمي قد أخذ في الاقتراب، أمر بلدوين بتقسيم قواته إلى ست فرق وجعل أمامهم راهبا يحمل بيده الصليب، ثم اندفع إلى ساحة المعركة، وحدث أن اصطدمت فرقة من جيشه بمقدمة الجيش الفاطمي، فاضطربت وأجبرت على الفرار فتتبعهم عدد كبير من الفاطميين، وراحوا يعملون فيهم السيف، حتى قتلوا معظمهم (الصوري، 1992).

بينما بقيت الفرق الأخرى تقاتل القوات الفاطمية، إلى أن كسرت ميمنة وميسرة الفاطميين وبقي القوامسي مع نفر قليل من جيشه في القلب، ثم كبا به فرسه فسقط واستشهد (ابن القلانسي، 1983) وفرت الفئة التي كانت ثابتة معه، فتتبعتها القوات الصليبية، تقتل كل من لحقت به، إلى أن وصل إلى مشارف عسقلان، "ولم يوقفه عن الذبح المروع إلا دخول الليل، وإذ ذاك نفخ الملك في البوق مستدعيا رجاله، فعادوا إلى ساحة المعركة حيث أخذ يوزع الغنائم عليهم تبعا لقانون الحرب، وتقول الرواية أن قرابة خمسة آلاف من رجال العدو ذبحوا ذبح الشياه في ذلك الموضع ولما أحصى رجالنا كان

المفقودون منهم سبعون فارسا، وأكثر منهم الجند المشاة على أن الخسارة الحقيقية لم **تعرف**" (الصوري، 1992، ج2، ص226).

هذا وكانت القوات الفاطمية التي تتبعت فلول الفرقة الهاربة من جيش بلدوين، قد أوغلت في مطاردتهم حتى بلغت مدينة يافا، ثم وقفت أمام المدينة لتعلن في صوت عالي أن الجيش الصليبي قد هلك رفقة قائدهم، ما أدخل البلاد في دوامة من الفوضى، حتى أن القيمين على يافا راسلوا تانكرد أمير أنطاكية، يستصرخونه لنجدة المملكة (الشارتري، 1990).

ثم لما قفلوا راجعين، اصطدموا بالجيش الصليبي وهو عائد إلى المدينة، ففروا منه وراح هذا الأخير يطاردهم، ويقتل كل من وصلت إليه يديه، ويعترف ويليام الصوري، بشجاعة هؤلاء في الدفاع عن أنفسهم، فيقول: "استبسلوا في قتالهم حفاظا على حياتهم، وهجموا على خصوم ملتهم، وكان قتال اليأس في الأحياء المجاورة استعملت فيه السيوف، وأحيط بالعدو إحاطة سدت عليه مسالك النجاة، فهلك الكثيرون من رجاله، أما البقية الذين أفزعهم الخوف من الموت فقد ولوا الأدبار" (الصوري،1992، ج2، ص227).

كانت هذه هي المعركة الثانية للجيش الفاطمي بعد معركة عسقلان الأولى، والتي انتهت كسابقتها بانهزام ساحق للفاطميين، في مقابل انتصار آخر للصليبيين، وبدراسة دقيقة لسير العمليات العسكرية، فإنه يمكننا أن نستنتج أن عدد الجيشين الفاطمي والصليبي، الذين أوردهما الصوري، يقع فيهما لبس كبير، فقد أورد أن الجيش الفاطمي فاق الواحد والثلاثين ألف مقاتل، بينما لم يتعد الجيش الصليبي الذي انتصر انتصارا ساحقا، الألف ومائتين، وهو أمر يبدو غير معقول، إذ ليس من العقل أن ينهزم جيش كبير بذلك العدد أمام عدد قليل من الصليبيين كما ذكرهم الصوري، وبالتالي فإن ما جاء به هذا الأخير يبدو أمرا مبالغا فيه جدا.

الراجح أن عدد الجيش الصليبي الذي أورده ابن القلانسي هو الصحيح، فقد أورد ما مجموعه بين الرجالة والخيالة، إحدى عشر ألفا، بينما لم يورد عدد الجيش الفاطمي بالضبط، وإن أخذنا بالعدد الذي أورده الصوري، وإن كان مبالغا فيه، فإننا سنقبل

بنتيجة المعركة على اعتبار أن أعداد الجيشين متقاربين بالمقارنة مع ما أوردهما في السابق.

ما يمكننا استنتاجه أيضا، هو أن الجيوش الصليبية كانت تخرج دائما منتصرة، في حين أن الفاطميين كانوا يخرجون منهزمين دائما، وسبب ذلك على ما يبدو هو أن الوضعية النفسية التي يدخل بها كل جيش إلى المعركة، فالمتفائل الباحث عن النصر بأي ثمن، ليس كمن يقاتل مكرها وما أحسب أن الجيش الفاطمي إلا يقاتل مكرها، وإلا فكيف ينهزم بمجرد أن يبدأ المعركة، أو أن التخطيط العسكري عند الصليبيين، هو أفضل منه عند الفاطميين.

3.3 معركة الرملة الثانية

لم يستطع الوزير الأفضل أن يسكت على الهزيمة التي لحقت بجيوشه على أيدي الصليبيين وما اشتهرت به مصر من موارد ضخمة، هيأت له أن يجهز جيشا كبيرا يستطيع بواسطته استئناف القتال، واحتشد الجيش الذي بلغ عدده عشرين ألفا في عسقلان في (25رجب 495هـ/15ماي1102م)، تحت قيادة شرف المعالي بن الوزير الأفضل، ثم انطلق إلى اللد والرملة ويازور، ومن هناك اتجه لتهديد يافا وبيت المقدس(ابن ميسر، (د.ت))، وكان بلدوين قد استعد هو الآخر، فحشد جموعه التي قدرها ابن القلانسي بسبع مائة ما بين فارس وراجل (ابن القلانسي، 1983)، ويبدو أنه اغتر بانتصاره السابق، أو أن كشافته ضللته، أو لاعتقاده بأن الفاطميين ليسوا إلا فئة قليلة، فاستخف بهم وعزم على أن يتولى بنفسه القضاء عليهم دون أن يلجأ إلى استدعاء القوات الاحتياطية، فخرج من بيت المقدس قاصدا الرملة، وفي الوقت الذي كان يسير فيه على غير تعبئة باغتته القوات الفاطمية بين يازور والرملة (طقوش، 2007)، ونشبت المعركة ولم يستطع بلدوين الثبات أمام الجموع الإسلامية، فانهزم هو وجيشه (ابن خلدون،2001)، ولقي عدد كبير من الفرسان مصرعهم في ساحة المعركة، وتمكنت جماعة من الفرسان أن تشق لها طريقا في صفوف المسلمين حيث التحقت بيافا، أما الملك وكبار أعوانه، فاتخذوا طريقهم إلى حصن الرملة الصغير حيث حاصرهم الجيش الفاطمي.

يرجح أن سبب انتصار الفاطميين في هذه المعركة هو اعتقادهم بأن تلك الثلة من القوة العسكرية الصليبية ليست إلا طليعة لجيش ضخم آت على أعقاب الملك، فاختاروا أن يباغتوها فورا قبل أن يلحق بها بقية الجيش، ولذلك عندما نشبت المعركة لم يستطع بلدوين الصمود هو وجيشه فانهزموا على يد الفاطميين، وقد كان بإمكان الجيش الفاطمي أن يستولي على الرملة بسهولة، لو أنه استغل سوء عوامل الدفاع عنها، كما كان بإمكانه القبض على الملك الصليبي، لكن حلول الظلام جعل الجنود الفاطميين يؤجلون اقتحامهم لها صباح اليوم التالي، وهو ما يسر لبلدوين الفرار من الرملة ليلا بعد أن تنكر واتجه إلى يافا، وهاجم الجيش الفاطمي المدينة صباح اليوم التالي، واقتحمها وقتل معظم من فيها من فرسان الصليبيين (الصوري، 1992)، ولم يلبث الجيش الفاطمي أن حاصر يافا برا في الوقت الذي كانت فيه مطاردة بلدوين جارية، في حين حاصرها أسطول فاطمي بحرا، فاضطر بلدوين إلى تغيير وجهة سيره، واتجه إلى أرسوف شمال يافا حيث تجمع رجاله من جديد، وتمكن من دخول يافا بعد ذلك عن طريق البحر مخترقا الحصار البحري (الشارتري، 1990).

وصلت إلى ميناء يافا آنذاك مائتا سفينة، تقل أعدادا كبيرة من الجند والحجاج الإنكليز والفرنسيين والألمان، بعد أن شقت طريقها إلى داخل الميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمي فجندهم بلدوين في قواته، وبذلك حصل على معونة عسكرية هو بأمس الحاجة إليها، وبعد تنظيم هذه القوات، خرج بهم في ثامن شعبان، لمجابهة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة (يافا) وبعد ساعات قليلة، من نشوب المعركة حتى انهزم الفاطميون وتراجعوا إلى عسقلان (ابن ميسر، (د.ت)).

الواقع أن القوات الفاطمية افتقدت إلى وضع الخطط العسكرية الناجعة وتحديد الهدف الذي يخدم القضية الإسلامية، إذ كان بوسع سرية من العساكر أن تفتح بيت المقدس عقب معركة الرملة دون أن يتعرض حصار يافا لضعف ظاهر، ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دب بين أفراد الجيش الفاطمي عقب النصر الذي أحرزوه على الصليبيين في الرملة "فقال قوم: نقصد البيت المقدس ونتملكه، وقال قوم: نقصد يافا ونملكها، فبينما هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة بيت المقدس، فندبهم بغدوين للغزو معه" (ابن الأثير، 1987، ج9، ص56).

ما إن علم الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي، حتى أسرع بإرسال حملتين إحداهما برية بقيادة المملوك تاج العجم، وتألفت من أربعة آلاف فارس، والأخرى بحرية بقيادة القاضي ابن قادوس، لكن انعدام التنسيق العسكري بينهما، جعل الجيش البري يتوقف في عسقلان وفي الجهة المقابلة، كان بلدوين قد أرسل رسالة عاجلة إلى كل من تانكرد، الوصي على أنطاكية، ودي بورج أمير الرها، يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة، بعد أن سمع بتحركات الفاطميين الأخيرة، ولم تلبث أن وصلت إلى يافا في (17ذي القعدة/01سبتمبر)، نجدة بقيادة أميري أنطاكية والرها، وقد بلغ عدد أفرادها خمسمائة من الفرسان، وألفا من المشاة، ثم حذا الأفضل حذوه، فطلب الوزير الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ولكن دقاق اعتذر عن ذلك ولم يحضر(طقوش، 2007).

4.3 معركة الرملة الثالثة

لم يتخل الوزير الأفضل عن مواصلة الجهاد ضد الصليبيين، وإن كان يعاب عليه عدم الخروج بنفسه على رأس الجيش للقتال، ويبدو أن الأوضاع الداخلية المتردية في مصر آنذاك، والتي كانت تسودها المؤامرات، كانت وراء عدم مغادرته مصر، وقام بمحاولة أخرى في شهر (ذي الحجة498هـ/أوت1105م) مختلفة في النهج والأسلوب، فأرسل حملة بحرية، تعدادها عشرة آلاف فارس وراجل إلى بلاد الشام بقيادة ابنه شرف المعالي احتشدت في عسقلان(ابن ميسر، (د.ت))، وهناك انقسم الجيش قسمين، فسار قسم إلى يافا، بينما سار الآخر إلى الرملة وكان الأفضل قد أرسل إلى الأتابك ظهير الدين طغتكين، الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة تتش في شهر (رمضان497هـ/جوان1104م)، يطلب مساعدته، رغم الاختلاف المذهبي، والراجح أنه كان يريد تطويق الصليبيين من الشمال والجنوب، فقبل طغتكين هذا العرض، بعد أن رفضه في البداية (ابن القلانسي، 1983).

غير أنه لم يكن بوسعه أن يرسل إليه جيشا كبيرا على أنه أرسل قوة عسكرية قوامها ألف وثلاثمائة من الرماة بقيادة أصبهذصباو وجهارتكين ويعد ذلك أول عملية تحالف، اتحد فيها المسلمون ضد الصليبيين عدوهم المشترك (ابن الأثير،1987)، ومن الجانب الآخر، فإن بلدوين ما إن سمع بأخبار هذه الحملة حتى بادر بالزحف إلى يافا على رأس جيش

كبير، وزاد على ذلك بأن أصدر مرسوما يأمر فيه قوات كل المدن التابعة لمملكة بيت المقدس، بالتجمع في يافا، فاستجابوا له بسرعة، وبلغ عدد القوات الصليبية، بوصول هذه الإمدادات خمسمائة فارس وألفا جندي من المشاة، وجعل في مقدمة الجيش بطريرك بيت المقدس، يحمل في يده الصليب، ويحث الجنود على القتال، ويعدهم الرحمة الغفران (الشارتري، 1990)، كما انضم إليه أرتاش أخو دقاق، المطالب بعرش سلطنة دمشق (الصوري، 1992)، غير أنه لما رأى اقتراب الفاطميين من الرملة قرر ترك يافا، والتوجه إلى الرملة.

ثم إن الجيش الفاطمي عمد إلى مناوشة الصليبيين، حتى يتسنى للأسطول البحري الانتقال إلى يافا أين يجتمع بقوات ظهير الدين طغتكين، ويطبقوا كلهم على الصليبيين، وفي الرملة اصطدم الجيشان الإسلامي والصليبي، في (14 ذي الحجة/ 01 أوت)، حيث دارت بين الطرفين، انتهت بانتصار بلدوين، ويعود الفضل في انتصاره هذا إلى المساعدة التي تلقاها من الأسطول البندقي الذي وصل بعيد بداية المعركة عندما كان الأسطول الفاطمي يهم بالانسحاب من يافا، فانقضوا على مؤخرة الفاطميين، ثم ما لبثوا أن حاصروا الأسطول الفاطمي، ودمروه (ابن القلانسي، 1983).

كان هذا ما قاله الشارتري، لكنه لا توجد أية رواية أوردت ذلك، فحتى ويليام الصوري الذي نجده في كل مرة يتغنى بانتصارات الصليبيين، لم يورد هذه الرواية، وبالتالي فإن صدقها مشكوك فيه بحيث قال: "... ولكن أقدام المهاجمين في السفن تلطخت بالدماء، وهكذا تم الاستيلاء على هذه السفن المحملة بالثروات الطائلة، وبعد أن طرحت الجثث خارج السفن، كنت ترى البحر وقد امتد احمرار مياهه لبعد أربعة أميال" (الشارتري، 1990، ص 198)، تبدو هذه الرواية غير منطقية تماما، ولو كانت حقيقية لما تغاضى عنها المؤرخون.

فر صباو مع عساكره الأتراك عائدا إلى دمشق، بينما تراجع الجنود الفاطميون إلى عسقلان، وعاد شرف المعالي إلى القاهرة، وأصيب الجيش الفاطمي بخسائر فادحة حيث قتل ألف ومائتان من جنوده ولقي حاكم عسقلان مصرعه، ووقع القائدان السابقان لعكا وأرسوف في الأسر، وعاد الأسطول الفاطمي إلى صور وصيدا وطرابلس، كما تكبد الصليبيون خسائر مماثلة في الأرواح (ابن القلانسي، 1983)، وحسب ما ذكره ابن

الأثير فإن سبب الهزيمة التي مني بها الفاطميون والسلاجقة معا، هو الاختلاف الذي حدث بينهما حيث يقول: "وكان الأفضل قد سير ولده شرف المعالي في السنة الخالية إلى الفرنج فقهرهم وأخذ الرملة منهم ثم اختلف المصريون والعرب وادعى كل واحد منهما أن الفتح له فأتاهم سرية الفرنج فتقاعد كل فريق منهما بالآخر حتى كاد الفرنج يظهرون" (ابن الأثير، 1987، ج9، ص 85).

تبدو هذه الرواية هي الوحيدة التي ذكرت سبب الهزيمة، ولا ندري صحتها من عدمها، لكن كل ما يمكننا قوله هو أن هذه الحملة الفاطمية، فشلت في تحقيق هدف الفاطميين، كما أنهت جهودهم لاستعادة فلسطين، على الرغم من أنهم ظلوا يهددون الصليبيين بين حين وآخر، ولكن في نطاق محدود، ففي أوائل عام (500هـ/1106م)، هاجم بضعة آلاف من الفرسان الفاطميين معسكرا للحجاج بين يافا وأرسوف وقتلوا النازلين فيه، ثم توجهوا إلى الرملة، وهاجموا يافا وقصدوا بيت المقدس، لكن بلدوين عجل بالسير نحو الجنوب، وكان آنذاك في الجليل فانسحب الفاطميون إلى عسقلان (ابن الأثير،1987).

قام الفاطميون في العام التالي، بشن غارة على الجليل صدها بلدوين، وتوغلوا في عام (504هـ/1100م) حتى بلغوا أسوار بيت المقدس لكنهم لم يلبثوا أن انسحبوا، وجرت في السنوات العشر التالية غارات مماثلة بين حين وآخر، ومع أنها تقل عن سابقاتها في الأهمية، فإنها أزعجت الحجاج النصارى في السهل الساحلي والنقب(طقوش، 2007).

5.3 مقاومة الحاميات الفاطمية

جدير بالذكر أن الحاميات الفاطمية بفلسطين، كان لها هي الأخرى دور كبير في التصدي للعدوان الصليبي، ومن ذلك ما حدث مع حامية بيت المقدس، وحامية عسقلان، في حين أن بقية المدن لم تكن بها حاميات فاطمية كبيرة، وبالتالي فأغلبهم اعتمد على نفسه، ودفعوا حتى آخر نفس مثلما حدث مع سكان حيفا وأرسوف وقيسارية.

1.5.3 مقاومة حامية بيت المقدس

ما إن شعر قائد حامية بيت المقدس افتخار الدولة الفاطمي باقتراب الصليبيين، حتى عمد إلى اتخاذ عدة إجراءات احتياطية لمواجهة الحصار الصليبي المرتقب، منها:

- قام بردم الآبار التي تقع خارج المدينة، وسمم بعضها.
- أبعد قطعان الماشية إلى مواضع آمنة.
- ملأ مخازنه بالمؤن، وصهاريجه بالماء بما يكفيه لوقت طويل.
- طرد كافة النصارى من المدينة، وهو إجراء سديد، لو تمعنا فيه جيدا، إذ لا يرتجى منهم فائدة، خصوصا وأنهم ممنوعون من حمل السلاح، كما لا يمكنه الوثوق بهم إذا نشبت الحرب، فقد يقفون إلى جانب إخوانهم النصارى، كما أن خروجهم سيؤمن المؤن لمن تبقى من السكان.
- أرسل سفارة إلى مصر يطلب النجدة (رنسيمان، 1968).

كانت هذه هي التدابير التي اتخذتها الحامية الفاطمية ببيت المقدس، وإن كانت قد قاومت الحصار لبعض الوقت، إلا أنها لم تصمد طويلا، ووقعت المدينة في أيدي الصليبيين ليفعلوا بها الأفاعيل كما كنا أشرنا إليه سابقا، وعن سبب الهزيمة التي تعرضت لها هذه الحامية، فهو وبلا شك بسبب قلتها بالمقارنة مع جيش العدو، كما أن تباطؤ وصول المساعدات الفاطمية التي أرسل في طلبها كان له هو الآخر دور في هذه الهزيمة (مجهول، 1958)، وليس بوسعنا هنا أن نلوم أيا من الطرفين، فالأول لم يتقاعس في الدفاع عن المدينة، رغم محدودية جيشه وعتاده، والثاني كان قد أرسل المساعدة لكنها وصلت متأخرة غير أنه يمكننا أن نعيد اللوم مرة أخرى على الخلافة الفاطمية ككل، لأنها لم تساعد السلاجقة من قبل وهم يعانون من وطأة العدوان الصليبي، بل أكثر من ذلك تحالفت مع الصليبيين ضدهم ولو أنها قدمت المساعدة لهم لما وصل الصليبيون إلى بيت المقدس.

2.5.3 مقاومة حامية عسقلان

رغم أن أغلب المدن الفلسطينية سقطت بيد الصليبيين، إلا أن عسقلان ظلت عصية عليهم حيث لم يتمكنوا منها رغم تعدد المحاولات، وبما أنها لم تسقط بأيدي الصليبيين، وبحكم موقعها الذي يتوسط الطريق بين فلسطين ومصر، فإنها ظلت دوما منطلق العمليات العسكرية، سواء القادمة من مصر، أو منها هي بحد ذاتها، فقد دافعت حاميتها عن المدن الإسلامية كثيرا ووجهت عدة حملات عسكرية كلما سنحت لها الفرصة، ومن جملة ما قامت به من غارات نذكر:

- الإغارة على بيت المقدس ويافا، فقد كان العسقلانيون يترقبون كل ما يحدث في المدن المجاورة لهم، ولذلك فإنهم اغتنموا فرصة خروج بلدوين إلى طبرية، في سنة (519هـ/1115م) في مهمة خاصة به (ابن تغري، 1992) واضطرته الظروف للبقاء مع جميع قواته هناك، ليخرجوا في عسكر ضخم إلى الإقليم الجبلي ومن ثم إلى بيت المقدس لمحاصرته، الذي لم تكن به قوات صليبية كافية للدفاع عنه، وبالنظر إلى ضيق الوقت فإنهم قاموا بغارات خاطفة على المناطق المجاورة لبيت المقدس، واستمروا على ذلك بضعة أيام (الصوري، 1992).

خرج بلدوين في نفس السنة، إلى أنطاكية لنصرة الصليبيين بعد أن جمع لهم طغتكين جموعه للهجوم على المدينة، فاغتنم العسقلانيون هذه الفرصة، ليخرجوا بجيش كبير لمحاصرة يافا، وكان في مساعدتهم هذه المرة أسطول فاطمي مؤلف من سبعين سفينة، ويبدو أنه كان يريد احتلال كافة المدن الساحلية التي يمر بها، أما الجيش البري فقد تبعهم ناشرا راياته حيث ظهر فجأة أمام المدينة (الشارتري، 1990)، ولما وصلوا إلى المدينة، أحاطوا بها من كل جانب، وبدأوا بالإغارة عليها، وأقاموا عليها سلالم لتسلق الأسوار، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك، فقد كان القيمون على السور حريصين على ألا يدعوا الأعداء يتسلقون السور، ولذلك راحوا يرمونهم بالسهام حتى ردوهم عن الأسوار، ولم يتمكنوا من دخولها، إلا أنهم أحدثوا بالمدينة أضرارا بالغة، حيث تداعت أجزاء من السور، كما احترق جزء من أبواب المدينة.

بعد أن أدرك الفاطميون أخيرا، أنهم لن ينالوا من المدينة منالا، قرروا الانسحاب، وتزامن ذلك مع هبوب ريح مواتية لسير السفن،غير أن هذا الانسحاب كان خطة اتخذها الفاطميون لإيهام أهل يافا بأنهم رحلوا نهائيا، فعادوا مرة أخرى بعد عشرة أيام، ولم يشعر بهم أحد إلى أن ظهروا أمام المدينة فجأة، إلا أنهم لم يتمكنوا منها مرة أخرى بعد أن استمات أهلها في الدفاع عنها، وما ساعدهم على الصمود هو علمهم باقتراب الملك بلدوين منهم، الذي جاء لمساندتهم، إضافة إلى قلة أعدائهم هذه المرة بالمقارنة مع المرات السابقة.

كانت هذه هي المحاولات التي قامت بها الحاميات الفاطمية لمواجهة الصليبيين، وإن كانت قليلة إلا أنها محاولات تحسب لهم، فإذا نظرنا إلى ما فعلته حامية عسقلان

عندما خرجت إلى بيت المقدس مرة، ومرتين إلى يافا، نجد أنها قد أدت واجبها، وإن كانت محاولاتها محدودة إلا أنه لا يمكننا أن نغمطها حقها، ونفس الشيء مع حامية بيت المقدس، التي اتخذت في البداية التدابير اللازمة، لمواجهة الحصار المحتمل، إلا أنها عجزت عن الصمود، واستسلمت ويحق لها ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار المجازر الشنيعة التي ارتكبها الصليبيون بأهل القدس، فلو أنها لم تستسلم للاقت نفس المصير، ولن يفيدها ذلك شيئا.

خاتمة

إن العدوان الصليبي على العالم الإسلامي كان نتيجة حتمية، وسبب ذلك هو الأوضاع العامة التي كانت تعيشها كل من أوربا والعالم الإسلامي، فأوربا كانت تعيش حالة من الفوضى السياسية والاقتصادية وقد صاحبها فوضى اجتماعية كادت أن تنتهي بانفجار الأوضاع هناك، وبالتالي كان من الضروري البحث عن منافذ خارج حدودها، وكانت منطقة المشرق الإسلامي هي الأرض الموعودة عندهم، بحيث تمتلك من المؤهلات ما يمكنها أن تخرجها من حالتها الضيقة.

ومن جانب آخر كان العالم الإسلامي يعاني الانقسامات خاصة بين القوتين الكبيرتين في بلاد الشام آنذاك وهما الدولة السلجوقية والدولة الفاطمية، ونتيجة الاختلاف المذهبي بينهما تولدت كثير من المشاحنات انتهت باستغلال كل طرف لضعف الطرف الآخر والانقضاض عليه، ووجد أحدهم (الفاطميون) في مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام فرصة للقضاء على الخصم الآخر (السلاجقة) والتنعم بأرض الشام الجنوبي لوحدهم.
غير أن الفاطميين أدركوا حقيقة الموقف بعد فوات الأوان، فبعد أن اضمحلت قوة إخوانهم السلاجقة أمام الضربات المتكررة للصليبيين من جهة والفاطميين من جهة أخرى، وجد الفاطميون أنفسهم أمام العدوان الصليبي على أراضيهم ولم تشفع لهم سفاراتهم المتكررة ووعود الصليبيين لهم من قبل، وأصبحوا أمام حتمية الدفاع عن النفس. عمل الفاطميون ما بوسعهم من أجل الحفاظ على ممتلكاتهم في فلسطين وكانت على مراحل وصيغ عدة، بحيث أرسلوا الجيوش لمواجهة الصليبيين، لكنها لم تقدر على فعل المأمول منها وانتهت أغلب إرسالاتهم بفشل ذريع، ثم قاموا بعمل ثان

وهو تدعيم الحاميات المحلية بالأموال والعتاد من أجل الصمود أمام الضربات الصليبية لكنها هي الأخرى فشلت فشلا ذريعا، لضعفها الظاهر أمام القوات المعتدية.

وما يمكننا قوله في الأخير هو أن تمكن الصليبيين من العالم الإسلامي ما كان ليحدث لولا الخطأ الفادح من الفاطميين، وكان بالإمكان لو اتحدوا مع السلاجقة أن يقوضوا الوجود الصليبي ويمنعوه عن العالم الإسلامي.

المراجع

1. ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، 1987. الكامل في التاريخ، راجعه وصححه: محمد بن يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1.

2. ابن القلانسي أبو يعلى بن أسد بن علي بن محمد التميمي، 1983. ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان دمشق،ط01.

3. ابن الوردي زين الدين عمر بن مظفر، 1996. تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت.

4. ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، 1995. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من أهل الأماثل، واجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غلامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ج07.

5. ابن ميسر تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب، (د.ت). أخبار مصر، تح: أيمن سيد فؤاد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

6. أبو الفدا الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، 1997. المختصر في أخبار البشر، تع: محمود ديوب، دارالكتب العلمية، بيروت.

7. أبو المحاسن جمال الدين بن تغري بردي الأتابكي، 1992. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدمله وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية،بيروت، طبعة 1،ج05.

8. الجندي محمد سليم: تاريخ معرة النعمان، 1994،حققه وعلق عليه، ووضع فهارسه: عمر رضا كحالة، وزارة الثقافة السورية، دمشق.

9. الحريري أحمد بن علي، 1981. الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تح وتع: سهيل زكار، دار الملاح، ط1.

10. الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي،1977. معجم البلدان، دار صادر (بيروت)، ط1.

11. الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، 1985. العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.

12. مجير الدين الحنبلي العليمي، 1999. الأنصال جليل بتاريخ القدس والخليل،تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان.

13. المقريزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، 1996. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح: جمال الدينا لشيال، وزارة الأوقاف المصرية، ط.2.

14. تودي بوبطرس، 1999. تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، تر: حسين محمد عطية، تق: جوزيف نسيم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،ط1.

15. رنسيمان ستيفن، 1968. تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دارا لثقافة، بيروت.

16. الشارتري فوشيه، 1990. تاريخ الرحلة إلى القدس، ترجمة من اللاتينية إلى الإنجليزية فرنسيس ريتاريتان، حرره وقدم له هارولد. س. فنك، نقله إلى العربية زياد جميل العسلي، دار الشروق بيروت، ط1.

17. الصوري ويليام، 1992. الحروب الصليبية، تر وتع: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

18. مؤرخ مجهول، 1958. أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، تر وتق وتع، حسن حبشي، دار الفكر العربي، ط1.

19. طقوش محمد سهيل، 2007. تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت،ط.2 .

20. عبده قاسم، 1978. ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

21. الغامدي مسفر بن سالم بن عريج، (د.ت). الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر، ديوان المطبوعات الحديثة.

22. محمد الصالح البرغوثي وخليل طوطح، (د.ت). تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.

23. ياسين سويد، 1997. حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، دار الملتقى، بيروت.

24. المطوي محمد العروسي، 1982. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2، دار الغرب الإسلامي، ص 34.

25. عمران محمود سعيد، 1995. تاريخ الحروب الصليبية (1095-1291م)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص 19-20.

26. السيد محمود، 2002. تاريخ الحروب الصليبية في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ص 14-15.

27. تيسير بن موسى، (د.ت). نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين محمود، الدار العربية للكتاب، ص 56.

28. طقوش محمد سهيل، 2007. تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت،ط 2.

29. أمين معلوف، 1998. الحروب الصليبية كما رآها العرب، تر: عفيف دمشقية، دار الفرابي، بيروت، ط2.

30. باركر أرنست، (د.ت). الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار النهضة، بيروت،ط2.

31. جون اثانريلي سميث، (د.ت). الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، تر: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

32. هانس إبرهار دماير، (د.ت). تاريخ الحروب الصليبية، تر وتع: عماد الدين غانم.

33. Upton Tood Patrick, 2007. S*acred topography western sermon perceptions of Jerusalem the holy sites and Jews during the crusade (1095-1193*), proquest information and lerning company, USA.

34. Porges Walter, 1942. *The clergy and other noncombatants on the first crusade: A study based chiefly on the contemporary narrative and epistolary sources*, Chicago, Illinois.